شروط ضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية(*)
الحلقة (1)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ"**.

ثلاث خصال تحقق حلاوة الإيمان

الأولى: حب المؤمن لله ورسوله أكثر من أي شيء ومن أي إنسان مهما كان، حتى وإن كان الوالدان أو النفس أو الزوج أو الأولاد.

الثانية: إذا أحب المؤمن إنسانا فهو يحبه لله فقط، وليس لأي مصلحة أو منفعة، وإذا أبغض إنسانا فهو يبغضه لله، وليس لأنه ليس له فيه فائدة أو منفعة، فهو يحب لله ويبغض لله.

الثالثة: أن يكره المؤمن أن يعود في الكفر كما يكره أن يُرمى في النار، وهل هناك من يحب أن يُرمى في النار؟

هذه الخصال الثلاثة من شعب الإيمان، ورسول الله ﷺ يخبرنا أن من لم تتوفر فيه هذه الخصال الثلاثة لن يجد حلاوة الإيمان، ومن توفرت فيه وجد حلاوة الإيمان.

"ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان"، ولابد من وقفة مع هذه الكلمة "حلاوة الإيمان".

ما معنى حلاوة الإيمان؟

لكل شيء تستحبه النفس حلاوة، فكل ما يُستلذ وتستطيبه النفس له حلاوة؛ الماء له حلاوة، الطعام له حلاوة، النوم له حلاوة، الزواج له حلاوة، الذرية لها حلاوة، الصيد والسياحة وكل شيء مما يستمتع به الإنسان له حلاوة وله لذة يستشعرها الإنسان، كذلك الإيمان له حلاوة.

لماذا يحب الإنسان شيئا من الأشياء؟ لأن له حلاوة في نفسه، الإيمان كذلك له حلاوة لا يستشعرها من لا تتوفر فيه هذه الخصال. والحلاوة بطبيعتها لا يمكن لأحد أن يصفها لغيره، لأنها إحساس، والإحساس لا يوصف أو يُنقل إلى الغير، فحلاوة شيء ما لا يدركها إلا من تذوق ذلك الشيء واستمتع به، فكذلك الإيمان لا يحس حلاوته إلا من أدرك حقيقته.

وحلاوة الإيمان لا تدانيها ولا تساويها ولا تماثلها ولا حتى تقاربها أي حلاوة أخرى؛ فأعظم حلاوة وألذ حلاوة هي حلاوة الإيمان، لأن الإيمان الحقيقي سكينة في النفس وراحة في القلب وانسجام مع الوجود كله.

(*) ـ مقال منشور على أربع حلقات في جريدة البصائر، الجزائر، الأعداد: 1088، 1089، 1090، 1091، الصادرة على التوالي في: 31 أكتوبر، 7، 14، 21 نوفمبر 2021م.

وهذه الحلاوة تنعكس على حياة الإنسان وتظهر فيها، فتظهر في شخص الإنسان، وتظهر في معاملاته، وتظهر في طريقة تفكيره، وتظهر في طموحاته في الحياة، وفي كل شؤون حياته. ولا يدرك حلاوة الإيمان إلا من توفرت فيه خصال الإيمان.

وقد يكون الإحسان بشيء من الحلاوة الإيمانية متحققا في نفس كل مؤمن، لكن هذا الإحساس درجات، فالناس ليسوا جميعا في مرتبة واحدة من الإيمان، وإنما يتفاوتون في مراتب الإيمان، ولذلك يتفاوتون فيما يستشعرونه من حلاوته، فكل منهم يستشعر منها بقدر درجته من الإيمان، والمرجو من الله عز وجل أي لا يحرم مؤمنا من شيء عن هذه اللذة والحلاوة.

حب الله ورسوله أكثر مما سواهما

أول هذه الخصال: "أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما".

بمعنى: أن يستولي حب الله عز وجل، ثم حب رسوله ﷺ، على قلب الإنسان، فكل ما يتعارض مع حب الله عز وجل ومع حب رسوله ﷺ، لا ينبغي للإنسان أن يحبه، بل يجب عليه أن يكرهه لأنه يتعارض مع حب الله. فكل ما هو مبغوض عند الله عز وجل، وكل ما يتسبب للإنسان في سخط الله فالمؤمن يكرهه لأن الله عز وجل يكرهه، وكل ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من عبده ويثيبه عليه، فالمؤمن يحبه لأن الله عز وجل يحبه.

"أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما"، هذا امر منطقي، فليس غريبا أن المؤمن يحب رب العالمين ويحب الرسول ﷺ أكثر من غيرهما؛ أكثر من نفسه، وأكثر من والديه، وأكثر من زوجته، وأكثر من أولاده، وأكثر من ماله، وأكثر من كل شيء في هذا الوجود.

منطق العقل ومنطق الفطرة ومنطق الواقع يوجب أن يكون الله عز وجل أحب إلى الإنسان من نفسه ووالده وزوجه وولده ومن أي شيء في هذا الوجود.

لماذا؟ لأن الإنسان يحب غيره بحسب فضل هذا الغير عليه، فكلما كان هناك من يسدي له الخير أكثر كلما كان حبه له أكثر، المنطق يقول هذا، فلا يمكن أن يكون من أسدى إليك معروفا مرة تحبه أكثر ممن يسدي إليك في كل يوم أنواعا وألوانا من المعروف.

حب الله في الدرجة الأولى

من يسدي إلى الإنسان من الخير أكثر من رب العالمين؟ من في هذا الوجود له فضل عليك أيها الإنسان أكثر من ربك عز وجل؟ من خلقك؟ من أحسن صورتك؟ من أكمل أعضاءك؟ من أكرمك بالحياة؟

من أغدق عليك نعمه حتى قبل أن تخرج إلى الدنيا وأنت في بطن أمك؟ ثم بعد أن خرجت من بطن أمك إلى هذه الدنيا، ثم وأنت تتدرج في مراحل النشأة والتربية وتكبر شيئا فشيئا حتى تصبح إنسانا عاقلا مميزا قادرا على فعل ما تريد، من يرعاك بالحفظ وبالرزق وبالستر وبالحماية طيلة حياتك؟ من يفعل ذلك غير الله عز وجل؟

الإنسان لو أراد أن يسجل نعم الله عليه، يجلس مع نفسه ويبدأ في عد هذه النعم في اليوم الواحد، سيملأ سجلا كاملا ولا ينتهي، لأنه في كل لحظة، في كل ثانية، هناك نعمة أو أكثر تحل به، بل نعم متراكمة تحيط به في كل ثانية.

ينابيع من النعم مفتوحة ومتدفقة، نِعَمٌ لا يمكن للإنسان أن يحسبها أو يحصيها.

أفيمكن للإنسان العاقل أن يتصور أن هناك من له فضل عليه أكثر من ربه عز وجل؟

الإنسان لا يحتاج إلى براهين: (وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الذاريات: 21]، لا يحتاج إلى براهين أو أدلة على أن الله عز وجل صاحب الفضل الأول وصاحب النعمة العظمى عليه، والذي يطلب الأدلة هو الإنسان الذي يجحد نعم الله عز وجل وينكر فضل الله سبحانه وتعالى عليه في هذه الدنيا.

محبة الله عز وجل، إذن، مما فُطر عليه الإنسان، فرب العالمين عز وجل عندما يخلق أي إنسان يفطره على حبه سبحانه وتعالى، لأنه محتاج إليه، أي أن الإنسان يشعر بحاجته إلى ربه عز وجل.

لماذا ينسى الإنسان نعم الله عليه؟

ما الذي يجعل الإنسان ينسى نعم الله وفضل الله وحاجته إلى الله؟

إنه التعود على النعم، التعود ينسي، تعود النعمة يُنسي مصدرها، فالإنسان عندما يتعود على نعمة تصبح بالنسبة له حقا مكتسبا، يحسب أنه هو الذي يوفر هذه النعمة لنفسه، وينسى أن هناك من يمده بهذه النعمة وبهذا الفضل.

فنحن من كثرة ما تمرغنا في نعم رب العالمين، ومن كثرة ما يغدق علينا عز وجل من النعم، من استمرار هذه النعم وعدم انقطاعها نسينا مصدر هذه النعم وحسبناها حقا مكتسبا، وكأن كلا منا يقول في نفسه: ما دمت حيا وما دمت موجودا فهذه النعم حق، وهي لابد أن تأتيني دون أن أطلبها.

هذا هو الخطأ الذي يقع فيه الإنسان ويجعله يجحد نعم الله عز وجل وفضله سبحانه وتعالى عليه.

ذكر الله وشكره وسيلة لتذكر نعمه

ولكي لا ينسى الإنسان نعمة الله وفضله سبحانه وتعالى عليه، شرع لنا ربنا عز وجل أن نذكره ونشكره: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) [البقرة: 152].

ورب العالمين أنزل علينا القرآن لنذكره به، فتلاوة القرآن ذكر، وتسبيح الله عز وجل ذكر، حمد الله سبحانه وتعالى ذكر، تكبيره عز وجل ذكر، وما أكثر أنماط الذكر.

ومما يجعل الإنسان على ذكر دائم لنعم الله عز وجل عليه؛ أن يعرف أسماءه وصفاته سبحانه وتعالى، قال تعالَى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) [الأعراف: 180] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلَّا واحِدًا، مَن أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ" [رواه البخاري]،

لأن من يحصيها يعرف رب العالمين ولا ينساه أبدا ولا يجهل قدره سبحانه وتعالى، فهذه الأسماء تتضمن كلها نعم الله عز وجل على عباده، والإنسان عندما يحفظها ويحسن التصرف في هذه الحياة في ضوء كل اسم من هذه الأسماء، تصبح حياته كلها في رحاب الله عز وجل وفي إطار ذكر الله عز وجل وفي ظل طاعة الله سبحانه وتعالى.

حب الله ليس مجرد دعوى

ما أكثر الذي يدَّعون حب الله عز وجل، كل مؤمن يقول أنا أحب الله سبحانه وتعالى، ولكن معيار الصدق في هذا الحب هو الواقع، فإذا أردت أن تعرف مدى صدقك في حبك لله عز وجل فانظر موقفك من أوامره ونواهيه في حياتك، زن نفسك بنفسك، انظر في أوامر الله عز وجل هل أنت حريص على إنفاذها في حياتك؟ هل تسعى إلى أن تعرف ما يحبه الله عز وجل لكي تفعله؟ وهل تسعى إلى أن تعرف ما لا يحبه الله حتى تبتعد عنه وتجتنبه؟ عندما تسمع قول الله تعالى: افعل كذا، هل تشعر أنه يجب عليك القيام مباشرة بإنفاذ هذا الأمر أم تبقى مترددا هل تفعل أم لا تفعل وتظل توازن بين ما يكون في ذلك من مصلحة دنيوية أو لا يكون. ونفس الأمر فيما نهى الله عز وجل عنه.

عندما تسمع النداء للصلاة وأنت مشغول بمشاغل دنيوية، هل تسارع إلى الصلاة وتترك أمور الدنيا بعد ذلك مؤملا في تيسيرها من الله عز وجل، أم تقول في نفسك: الصلاة لها وقت فلأقض أولا مشاغلي حتى لا تذهب ثم أصلي؟

هذا هو الامتحان الذي نسقط فيه عادة، فمعظم الناس يسقطون في امتحان العمل.

إن حب الله عز وجل ليس مجرد مشاعر، ولا مجرد عاطفة تشعر بها في قلبك ثم لا يكون لها تصديق في واقعك.

حب الله عز وجل ينبغي أن يظهر في واقع الإنسان، وفي كل مجالات حياته.

شروط ضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية
الحلقة (2)

محبة الرسول تابعة لمحبة الله

محبة النبي ﷺ، تأتي في الدرجة الثانية مباشرة بعد حب الله عز وجل، وسابقة على حب أي مخلوق أو شيء آخر، لماذا؟ لأن فضله ﷺ على الإنسانية، سابق على أي فضل آخر بعد فضل الله عز وجل، محمد ﷺ هو الإنسان الذي كلفه ربه عز وجل بأعظم مهمة فأداها على خير ما ينبغي أن تؤدى عليه.

فمنذ أن خلق الله عز وجل الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم يوجد في الناس مخلوق أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام، لأن محمدا ﷺ هو الذي قدم للبشرية ـ بعد الله عز وجل ـ أعظم خدمة.

البشرية قبل أن يُبعث محمد ﷺ، كانت تعيش في ظلام دامس، الديانات السماوية كانت قد حرفت تماما ولم يبق فيها شيء من الدين الصحيح، عبادة الاوثان عمت الجزيرة العربية وغيرها، الناس صاروا يعبدون كل شيء إلا الله.

فالبشرية كانت في موت، لأن الحياة ليست هي الأكل والشرب والنمو والتزاوج والتناسل، هذه حياة لا يفترق فيها الإنسان عن الحيوان. حياة الإنسان في علاقته بربه، وقبل أن يأتي محمد ﷺ، كانت علاقة الناس بربهم قد انقطعت تماما، وصاروا موتى، فجاء محمد ﷺ بهذه الرسالة الخاتمة التي بعثه بها ربه عز وجل، وأحيا بها الناس من جديد. لم يُحْيِ النبي ﷺ قومَه أو قبيلته أو قريته أو البلاد المحيطة بها فحسب، لقد أحيا الدنيا كلها.

وهنا نلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام جمع في خصلة واحدة بين حب الله وحب نبيه صلى الله عليه وسلم، بمعنى أنهما لا ينفصلان؛ فالذي يحب الله عز وجل بالضرورة يحب محمدا ﷺ، والذي يحب محمد ﷺ هو بالضرورة يحب قبل ذلك ربه سبحانه وتعالى.

لا يجوز أن تحب مخلوقا أكثر من محمد

محمد ﷺ هو الأوْلى بحب الإنسان المؤمن بعد الله عز وجل، فالإنسان المؤمن لا يُتصور منه أن يحب أحدا ـ بعد الله عز وجل ـ أكثر من رسول الله ﷺ، حتى نفسه التي بين جنبيه.

ينبغي أن يكون محمد ﷺ أحب إليك من نفسك ومن والديك ومن زوجك ومن أولادك ومن أقاربك ومن سائر الناس، وأن يكون أحب إليك من كل شيء في هذا الوجود، لماذا؟

لأنه لا فضل لأحد بعد الله عز وجل على المسلم، كما لمحمد ﷺ.. بفضل محمد ﷺ وُجدت هذه الأمة، وبفضل محمد ﷺ اهتدى الناس إلى الحق، وبفضل محمد ﷺ سيدخل المؤمنون الجنة وسينجيهم الله عز وجل من عذابه يوم القيامة، هل هناك أفضال أكثر من هذه؟

الإنسان عندما ينظر إلى فضل والديه عليه يجده لا يقارن مع فضل محمد ﷺ، مهما بذل والداك في سبيلك، مهما وفرا لك، مهما أحاطاك بالعناية والرعاية، فضلهما لا يبلغ فضل محمد ﷺ.

وأولادك إذا أصلحهم الله، مهما أرادوا أن يكافئوك بعد ذلك على ما فعلته معهم أو من أجلهم، لن يبلغ فضلهم عليك فضل محمد ﷺ.

فليس هناك من له فضل عليك، أيها الإنسان المؤمن، بعد الله عز وجل مثل ما لرسوله محمد ﷺ.

فنحن نحب محمدا ﷺ لفضله علينا، وحتى إذا لم يكن لمحمد ﷺ فضل، لأن الفضل كله لله عز وجل فهو الذي بعثه وهو الذي هداه وهو الذي وفقه، فيكفي أن الله يحبه، وأمرنا بحبه، والمؤمن يحب من يحبه الله عز وجل، وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: "أَحِبوا اللهَ لما يغْذوكم من نعَمِه، وأَحِبُّوني بحُبِّ اللهِ" [رواه الترمذي]؛ بمعنى أحبوا رب العالمين لما أحاطكم به من النعم، وأحبوا محمدا ﷺ لأن الله سبحانه وتعالى يحبه.

حب محمد من صميم الإيمان

حب محمد ﷺ من الإيمان، بل هو من شروط الإيمان، فلا يصح الإيمان ولا يصدق إلا إذا كان الإنسان يحب محمدا ﷺ، والإنسان الذي يدعي الإسلام ولا يحب محمدا ﷺ هو كذاب، وكل الدلائل قائمة على كذبه، إذ كيف تحب الله عز وجل ولا تحب من يحبه الله؟ كيف تقول أنا مسلم ولا تحب من جاءك بهذا الإسلام؟ يقول الرسول ﷺ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ" [رواه البخاري].

فمحمد ﷺ هو أجدر الناس بالحب، وحبه يجب أن يقدم على حب أي شيء آخر، عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كُنَّا مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَقالَ له عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شَيْءٍ إلَّا مِن نَفْسِي، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لَا، والَّذي نَفْسِي بيَدِهِ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِن نَفْسِكَ"، فَقالَ له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "الآنَ يا عُمَرُ" [رواه البخاري]، يعني الآن حققت الإيمان الصحيح، الآن بلغت الدرجة المطلوبة من الإيمان وهي أن تحب محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر من نفسك.

حب محمد ﷺ من حب الله، ولذلك المؤمن حريص على تقوية هذا الحب في قلبه، لا يكفي أن تقول إني أحب محمد ﷺ، عليك أن تقوي هذا الحب، وهذا الحب لكي تقويه يجب عليك أن تقرأ سيرة الرسول ﷺ وتعرف أخلاق محمد ﷺ التي قال مدحه بها ربه عز وجل في قوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: 4]، وتكفي شهادة الله عز وجل لرسوله ﷺ، ولا نحتاج إلى شهادة أخرى تشهد لمحمد ﷺ بكمال الأخلاق.

محمد هو الإنسان النموذج

محمد ﷺ أعطانا المثل من نفسه، وجعله الله عز لنا نموذجا لنفهم أن الإسلام ليس مجرد مثاليات وإنما هو واقع تجسد في شخص اسمه محمد بن عبد الله، ومحمد ﷺ لم يكن مَلَكاً، لم يكن شخصا استثنائيا، كان إنسانا بكل معاني الإنسانية، عاش كإنسان، لم يكن عنده شيء زائد على غيره من البشر، ومع ذلك استطاع أن يجسد هذا الدين في سلوكه وفي حياته وفي علاقاته.

ورب العالمين سبحانه وتعالى جعل لنا هذا الرسول أسوة وقدوة لمن يقتدي، حتى لا يأتي أحد ويدعي أن الدين صعب، أو أن فعل الأوامر صعب، أو أن ترك المناهي صعب، قال تعالى: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: 21].

كما أعطانا نماذج من أصحابه، صحيح أنهم لم يبلغوا ما بلغه محمد ﷺ، ولكنهم بلغوا الدرجة العظمى؛ الصديق أبو بكر رضي الله عنه، الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعشرات، بل مئات من الصحابة الذين رباهم محمد ﷺ وبلغوا ما بلغوا في العمل بهذا الدين.

فإذن، محمد ﷺ يستحق الحب لأن الله يحبه، وهو يستحق الحب أكثر من غيره لأنه لا فضل لأحد على الناس بعد الله عز وجل كما لمحمد ﷺ، ومحمد ﷺ جدير بالحب لأنه بلغ الغاية في أخلاقه وفي معاملاته.

حب محمد ليس مجرد عاطفة في القلب

حب محمد ﷺ لا يجوز أن يكون مجرد عاطفة، أو مجرد دعوى، لأن الادعاء يحسنه كل الناس، لابد من البرهان، لابد من دليل على الصدق في حب محمد ﷺ، وأول دلائل هذا الصدق حب ما يحبه محمد ﷺ وحب من أحبه محمد ﷺ وحب كل تصرف كان يعمله محمد ﷺ، فالحب سلوك وعمل وممارسة في الواقع.

لا يمكن لإنسان أن يحب محمدا ﷺ ويكره سنة من سننه، أو يسمع كلام محمد ﷺ ويقول دعونا من هذا الكلام فقد تجاوزه الزمن أو هذا كلام القرون الخالية أو ما إلى ذلك، ثم يقول أنا مسلم وأحب محمدا ﷺ، أين حب محمد ﷺ وأنت تنكر كلامه وتعتبره كلاما لم يعد له معنى في هذا العصر؟

حب محمد ﷺ يقتضي العمل بسنته، ويقتضي التمسك بما جاء به عليه الصلاة والسلام، محمد ﷺ جاء بالقرآن والسنة، وكلاهما وحي من الله عز وجل، والعمل بهما مطلوب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تركتُ فيكم أمرينِ لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بهما: كتاب الله، وسُنَّة رسوله" والحديث مروي في موطأ الإمام مالك، فالكتاب والسنة هما الدين الذي جاء به محمد ﷺ، والمسلم لا يكون مسلما حقا إلا إذا عمل بما في القرآن وعمل بما في السنة، لا يكفي القرآن وحده ولا تكفي السنة وحدها، بل هما معا يكمل أحدهما الآخر، لأن الله عز وجل أنزل الذكر وهو القرآن، وأمر محمدا ﷺ أن يبين هذا الذكر بالسنة: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

[النحل: 44]،[(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [آل عمران: 31].

فإذا كنت صادقا في دعوى حب الله عز وجل وفي دعوى حب محمد ﷺ، فالشرط الأول لتصدق في هذه الدعوى هو أن يظهر ذلك في سلوكك وفي معاملاتك وفي علاقاتك، وهو أن تتبع ما جاء به محمد ﷺ.

شروط ضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية
الحلقة (3)

المؤمن محب لإخوانه المؤمنين

الخصلة الثانية الضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية: "أن يحب المرء لا يحبه إلا الله".

فالمؤمن عندما يحب مؤمنا آخر، فهو يحبه لله، ليس لمصلحة ولا لمنفعة بينهما، وإذا أبغض شخصا آخر فهو يبغضه لأنه يعصي الله أو لأنه يفعل فعلا لا يرضاه الله عز وجل، قال المصطفى ﷺ: « إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ» [رواه أحمد]، وفي حديث آخر قال ﷺ: «من أحب في الله وأبغض في الله وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان» [رواه أبو داود].

المؤمن يحب أخاه المؤمن لأنه مؤمن وفقط، ولا يُتصور من المؤمن ألا يحب المؤمنين، لأن هذا أيضا شرط في صدق الإيمان، فالرابطة التي تربط بين المؤمنين هي الإيمان، وهذه الرابطة جعلها الله عز وجل أقوى الروابط وأعظم الروابط وأوثق الروابط، لأنها الرابطة الدائمة والرابطة الجامعة بين المؤمنين، ليس في الدنيا فقط وإنما في الآخرة أيضا، فهي الرابطة التي لا تنقطع.

قد يفترق المؤمنان وقد يتباعدان وقد يطول الزمان على فراقهما لأسباب، ولكن تبقى المشاعر قائمة، مشاعر الحب على الإيمان، لأن كلا منهما يحب الله عز وجل ويحب رسوله صلى الله عليه وسلم، فكل واحد منهما يحب الآخر لأنه يحب الله وسوله ويحب الإسلام ويؤمن به ويطبق أحكامه ويدعو إليه ويرجو أن يؤمن جميع الناس به.

الإيمان رابطة عظيمة، ولذلك لا يُتصور أن يكون الإنسان مؤمنا حقا ولا يحب إخوانه المؤمنين، أو يُبغض إخوانه المؤمنين، أين الإيمان إذن؟

الإيمان الصحيح هو الذي يجعل المؤمن يحب المؤمنين جميعا، لأنهم يحبون الله عز وجل ويطيعونه، هذا فقط وهو أهم شيء وأعظم شيء، أما أمور الدنيا فمتغيرة ومتبدلة، قد تجمعك تجارة مع شخص أو يجمعك عمل ما مع آخر، أو تجمعك مصلحة منها المصالح مع غيرك، لكن هذه كلها ليست ثابتة.

العلاقة بين المؤمنين ليست علاقة قائمة على المتغيرات، هي علاقة قائمة على الثوابت، لأن المتغيرات كثيرا ما كانت سببا في مصائب.

لذلك، لا ينبغي للإنسان أن يربط مودته ومشاعره بالمتغيرات، وإنما يجب أن يربطها بالثوابت، والثابت الأعظم هو ثابت الإيمان، لأنه وصف ليس للشخص، وإنما لسلوك هذا الشخص ولوجوده في الحياة.

المتحابون في الله يحبهم الله ويكرمهم

وصف الإيمان إذن، وصف يستحق به المؤمن أن يكون محبوبا لإخوانه، وإذا أحب إخوانه وأحبوه حبا خالصا لله وليس وراءه قصد دنيوي أحبهم الله عز وجل، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال: "أنَّ رَجُلًا زارَ أخًا له في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فأرْصَدَ اللَّهُ له، علَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أتَى عليه، قالَ: أيْنَ تُرِيدُ؟ قالَ: أُرِيدُ أخًا لي في هذِه القَرْيَةِ، قالَ: هلْ لكَ عليه مِن نِعْمَةٍ تَرُبُّها؟ قالَ: لا، غيرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ في اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ: فإنِّي رَسولُ اللهِ إلَيْكَ، بأنَّ اللَّهَ قدْ أحَبَّكَ كما أحْبَبْتَهُ فِيهِ" [أخرجه الترمذي].

ولذلك فإن من بين من يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا يظل إلا ظله؛ وهو يوم القيامة، هم المتحابون فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رسُولُ اللَّه ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّه تَعالى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌفي المَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللَّه: اجتَمَعا عَلَيهِ، وتَفَرَّقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ فَقَالَ: إنِّي أَخافُ اللَّه، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فأَخْفَاها، حتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّه خالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" [متفقٌ عَلَيْهِ].

بل إن إكرام الله عز وجل يوم القيامة لعباده المتحابين فيه ليزيد ويتعدد ويتنوع حتى يغبطهم عليه النبيون والشهداء.

عن أبي مالك الأشعري قال: ... إن رسول الله ﷺ لما قضى صلاته أقبل علينا بوجهه فقال: "يا أيها الناس، اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله عز وجل عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم، وقربهم من الله". فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ناس من المؤمنين ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم [من الله]؟ انعتهم لنا، حلهم لنا - يعني صفهم لنا - شكلهم لنا، فسُر وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: "هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" [رواه أحمد].

وسائل إشاعة المحبة بين المؤمنين

وحتى تنتشر المودة بين المؤمنين وتتوثق عراها، فعليهم أن يتخذوا الأسباب لذلك ويحرصوا عليها، ومن ذلك؛ تبادل التحية بالسلام بينهم، أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم" [الترمذي].

فإفشاء السلام من وسائل نشر المحبة بين المؤمنين، فأنت ربما لا تعرف شخصا ما ولم تتعامل معه، ولكنك تحبه لأنه يلقي عليك السلام دائما. لماذا في واقعنا اليوم لا توجد مودة بين المؤمنين؟ لأنه لا أحد يلقي السلام على أحد، وقد تجد من يلقي السلام على غيره فلا يرد عليه، والبعض إذا سلمت عليه لا يرد السلام بمثله وإنما بلفظ آخر، كأن يقول: بخير، هذه ليست تحية، التحية هي: السلام عليكم، وردها هو: وعليكم السلام، أما (بخير) هذه فليست تحية وليس فيها أجر عند الله إطلاقا، أما التحايا الأخرى المستوردة من الكفار، فهذه ليست من تحية الإسلام في شيء.

ومن وسائل المحبة بين المؤمنين كذلك؛ الاجتماع على الصلاة، صلاة الجماعة، فالمفروض كل مؤمن يحرص على حضور صلاة الجماعة حتى يشعر بدفء المودة والمحبة بينه وبين إخوانه.

ومن ذلك أن يخبر الإنسان المؤمن إخوانه المؤمنين بمحبته لهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أحبَّ أحدُكمْ صاحِبَه فلْيأْتِه في مَنزِلِه، فلْيُخبِرْه أنَّهُ يُحِبُّه للهِ» [رواه أحمد]، وقال ﷺ: «إذا أحبَّ أحدُكم أخاه في اللهِ فلْيُعلِمْهُ، فإنَّهُ أبْقَى في الأُلْفةِ، وأثْبَتُ في المَوَدَّةِ» (صحيح الجامع؛ برقم: [280]، حديث حسن).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَعْلَمْتَهُ؟"، قَالَ: لَا. قَالَ: "أَعْلِمْهُ". قَالَ: فَلَحِقَهُ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ. فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ. [رواه أبو داود]. فإذا كنت تحب إنسانا فأخبره بمحبتك وأظهر له مودتك، حتى يبادلك نفس المودة والمحبة، وبذلك تشيع المحبة بين المؤمنين، وتشيع الأخوة، ويشيع التراحم، ويشيع التعاون، ويشيع الشعور المتبادل بين الناس.

ومن هذه الوسائل؛ قيام المؤمنين لبعضهم البعض بحقوق الأخوة الإسلامية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْهُ، وإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ، وإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ" [رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

وعن أَبي عُمارة الْبراءِ بنِ عازبٍ رضي اللَّه عنهما قَالَ: "أَمرنا رسولُ اللَّه ﷺ بِسبْعٍ، ونهانا عن سبعٍ: أَمرنَا بِعِيادة الْمرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجنازةِ، وتَشْمِيتِ الْعاطِس، وَإِبْرارِ الْمُقْسِمِ، ونَصْرِ المَظْلُومِ، وَإِجابَةِ الدَّاعِي، وإِفْشاءِ السَّلامِ. وَنَهانَا عَنْ خواتِيمَ - أَوْ: تَختُّمٍ بالذَّهبِ - وَعنْ شُرْبٍ بالفضَّةِ، وعَنِ المَياثِرِ الحُمْرِ، وَعَنِ الْقَسِّيِّ، وَعَنْ لُبْسِ الحَرِيرِ وَالإِسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ" [مُتَّفَقٌ عليه].

ومنها كذلك؛ التزاور والتباذل والتجالس في الله وابتغاء مرضاة الله، عن مُعَاذ بْن جَبَلٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يقول: "قالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتَجالِسِينَ فيَّ، وَالمُتَزَاوِرِينَ فيَّ، وَالمُتَبَاذِلِينَ فيَّ" [رواه مالِكٌ في الموطأ].

ترك ما يدعو إلى التباغض بين المؤمنين

ومن وسائل ثبات المحبة وتوثقها بين المؤمنين؛ أن يُعرضوا عن كل ما من شأنه أن يفسد المودة بينهم ويؤدي إلى تسرب البغضاء والكراهية ـ تجاه بعضهم البعض ـ إلى نفوسهم، مثل السخرية والغيبة والنميمة والحسد وسوء الظن والتحسس والتجسس. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) [الحجرات: 11-12]. وعن الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبَغْضَاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشِّعر، ولكن تحلق الدِّين" [رواه الترمذي وأحمد]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي ﷺ قال: "إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا" [متفق عليه]. وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: "سيصيب أمَّتي داء الأمم، قالوا: يا نبيَّ الله، وما داء الأمم؟ قال: الأشَرُ والبَطَرُ، والتَّكاثر والتشاحن في الدُّنيا، والتَّباغض، والتَّحاسد حتى يكون البغي ثمَّ الهرج" [رواه الطبراني والحاكم].

إن الدين ليس كلاما مجردا أو دعاوى فارغة، ليس دعاوى، ليس مجرد عواطف في القلب، إنه سلوك واقعي وممارسة عملية.

فإذا كنت تحب الله فيجب أن يظهر حبك له في الواقع، وإذا كنت تحب رسول الله ﷺ فينبغي أن يظهر حبك له في الواقع، وإذا كنت تحب إخوانك المؤمنين، عليك أن تظهر هذا الحب في الواقع.

شروط ضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية
الحلقة (4)

المؤمن يكره الكفر

الخصلة الثالثة من الخصال المؤهلة لتذوق الحلاوة الإيمانية: "أَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ"، وفي رواية: "وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار". أي أن المؤمن الصادق لا يخطر في باله نهائياً أن يعود إلى الكفر، إطلاقا، وحتى إذا خطر في باله هذا الأمر فلا يمكن أن تتقبل أن يتصور نفسه وقد أصبح في يوم من الأيام كافرا أو منقلبا إلى الكفر والعياذ بالله.

رسول الله ﷺ هنا يعطينا لفتة، يقول: "وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه" كما في الرواية الثانية.. الإنقاذ كيف يكون؟

عندما يكون إنسان على وشك التهلكة، أي مشرفا على الهلاك، فيأتي من يأخذ بيده ويخرجه إلى بر الأمان هذا هو معنى الإنقاذ، إخراج إنسان مشرف على الضياع والهلاك من المأزق الذي وقع فيه والأخذ بيده إلى الأمان والسلامة. فكذلك الكفر عبارة عن تهلكة، الكفر عبارة عن بئر عميقة لا قرار لها، الكفر عبارة عن بحر خضم هائج أمواجه متلاطمة لا يمكن لإنسان أن ينجو إذا بقي فيه.

هذه صورة الكفر، ولذلك فالإنسان المؤمن يعرف أن رب العالمين أنقذه من التهلكة، ويعرف معنى الإيمان، ومعنى أنه مؤمن وليس كافرا، يعرف أن الله أنقذه، يعرف أن الله أخذ بيده وسحبه من حال الهلاك والضياع والغرق إلى حال السلامة والأمان والطمأنينة.

المؤمن يعرف معنى الإيمان، لأن الإيمان هو تعلق بالله عز وجل، هو تنعم بعبادته سبحانه وتعالى، هو عيش في رحاب الله عز وجل، هو شعور بالتواصل مع الله سبحانه وتعالى، هو إحساس بلذة الإيمان وبلذة العبادة وبلذة الطاعة وبلذة الذكر وبلذة مراقبة الله عز وجل وبلذة الخوف منه سبحانه وتعالى.

فالإيمان نعمة عظيمة ينعم الله عز وجل بها على من يشاء من عباده.

والدليل ما نراه في الدنيا، فليس كل الناس أعطاهم الله هذه النعمة، وليس كل الناس وفقوا لهذا الخير الذي هو الإيمان. فرب العالمين أنقذنا بهذا الإيمان وتفضل علينا بهذا الفضل، وعلينا أن نستشعره ونعرف قيمته.

ولكي تعرف قيمة الإيمان والطاعة، عليك أن تتصور نفسك في حالة المعصية كيف تكون؟ فالإنسان يعرف قيمة نعمة الإيمان عندما يقارنها مع ما يكون فيه العصاة والضالون والمنحرفون.

الإيمان، إذن إنقاذ من الله عز وجل للإنسان، ولذلك الإنسان المؤمن يكره بشدة أن يعود إلى ما كان عليه قبل أن ينقذه الله بالإيمان.

الكفر نار حارقة

النار تحرق، والإحراق أشد أنواع العذاب.

المؤمن لا يقبل أن يُرمى في النار، ولذلك لا يقبل أن يعود في الكفر، لأن الكفر نار.

كما أن النار تحرق الجانب الحسي، الكفر يحرق الجانب المعنوي من حياة الإنسان.

الإنسان لماذا هو إنسان؟ بالإيمان، بالعيش في رحاب الله عز وجل، باتباع أوامر الله سبحانه وتعالى وترك ما نهى عنه. يحقق الإنسان إنسانيته عندما يحقق العبودية، لأن الله عز وجل خلقه ليعبده، فعندما يعبد الله يكون إنسانا على الحقيقة، وعندما يتخلى عن هذه المهمة ويعصي رب العالمين تغيب إنسانيته ولا يكون حينئذ إنسانا على الحقيقة، بل يكون مجرد كائن غافل عن مهمته وغافل عن حقيقته، فلا يعيش حقيقته كإنسان، لأن رب العالمين يقول: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: 56]، فمن لا يعبد الله لا يعتبر إنسانا على الحقيقة، وإنما يكون إنسانا حين يحقق وصف العبودية لله عز وجل.

الإنسان عندما يخرج عن إنسانيته يحترق، كالشيء الذي ترميه في النار فأنت تحرقه، كذلك الإنسان حين يبتعد عن ربه عز وجل ويتبع الشيطان أو يتبع النفس الامارة بالسوء أو يخوض في شهوات الدنيا المحرمة فهو يحرق نفسه ويحرق شخصيته الإنسانية.

الكفر نار حارقة، ولذلك المؤمن لا يرضى لنفسه أن يحترق، خاصة الإنسان الذي جرب الكفر ثم أكرمه رب العالمين بالإيمان، هذا يعرف معنى الكفر ومعنى البعد عن الله عز وجل ومعنى أن يكون الإنسان تابعا ذليلا للشيطان، يعرف معنى ذلك كله، ولذلك يحس بأنه لما رجع إلى الله عز وجل ولما صار عبدا لله سبحانه وتعالى صار يحس بأنه ارتفع وصارت له قيمة ومكانة عالية، لأن الكفر حضيض والإيمان قيمة، ولا يقبل بالحضيض إلا السفلة الذين لا قيمة لهم والذين لا يشعرون بأهمية وجودهم في هذه الدنيا.

الكفر طمس للحقيقة

الكفر، إذن نار حارقة، لماذا؟ لأنه ما معنى الكفر؟ الكفر هو التغطية، هو الطمس، هو الإخفاء، فكلمة كفر في اللغة العربية معناها أخفى وطمس وستر وغطى الشيء حتى لا يظهر.

فالكفر هو طمس للحقيقة، الحقيقة ظاهرة يريد الكافر أن يطمسها، فيأتي بغطاء يغطيها به حتى لا تظهر، هذا هو الكفر.

الكافر ماذا يخفي؟ ما هي الحقيقة التي يخفيها الكافر ويغطي عليها ويريد أن يطمسها؟ إنها الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها، و الفطرة هي الإيمان الذي خلق الله عليه الإنسان.

عن مطرف بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلتُه عبدًا حلالٌ، وإني خلقت عبادي ضعفاء حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا..." [رواه مسلم]. فكل إنسان في أي مكان في

هذا العالم، عندما يولد في هذه الدنيا، يولد مؤمنا، سواء ولد في بيت مؤمنين أو في بيت كافرين، ولكن الشياطين لم تتركهم على فطرتهم فساقت هذا إلى النصرانية، وقادت هذا إلى اليهودية، وجذبت هذا إلى المجوسية، وهكذا.

وفي الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كُل مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" [رواه الشيخان].

فما من إنسان إلا ويولد مؤمنا، فالحقيقة هي حقيقة الإيمان بالله عز وجل، الحقيقة هي أن الناس كلهم فيهم الاستعداد للإيمان بالله عز وجل وعدم الكفر به، ولكن نتيجة التغطية التي تجري على هذه الفطرة، بالتربية، بالبيئة التي يوجد فيها الإنسان، بالمصاحبة، بما يُعَلم هذا الإنسان ويُلقن، هذه الفطرة تُغطَّى شيئا فشيئا حتى تنطمس، وهذا هو الكفر، الكفر هو تغطية الفطرة، الكفر هو طمس الاستعداد بالإيمان في قلب الإنسان، الكفر هو ستر الحقيقة عن عين الإنسان بحيث لا يراها فيتبع سبل الكفر ويبتعد عن سبيل الصواب وسبيل الحق وهو سبيل الإيمان.

مظاهر احتراق الكافر في الدنيا

الكفر، إذن، هو تغطية للحقيقة وطمس للإيمان، الكفر سبب لاحتراق الإنسان في هذه الدنيا.

أين ينشأ الميل إلى الانتحار في حياة الإنسان؟ ينشأ في ظل الكفر، الإنسان المؤمن لا يلجأ إلى الانتحار أبدا، لأنه يعرف أن كل ما يختاره له ربه عز وجل هو خير له، والحديث النبوي الشريف يقول: "عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ" [رواه مسلم]، لأنه يعرف أن كل ما يأتيه من الله عز وجل فهو خير له وهو مصلحة، ولذلك إذا جاءه ما يسره فهو يحمد الله عز وجل، وإذا جاءه ما يشعر معه بالضرر وبالمشقة فهو يصبر لله لأنه يعرف أن الله لم يقدر عليه هذا إلا وله فيه خير ومصلحة. ولذلك، قد تجد المؤمن فقيرا معدما لا يملك قوت يومه، ومع ذلك تجده يستبشر ويقول: الحمد لله. تجد المؤمن مريضا بداء عضال يعاني معه آلاما مبرحة، ومع ذلك عندما تسأله عن حاله يقول لك: نحن في رحمة الله.

من أين جاء هذا؟ من الإيمان. لكن عندما يكون الإنسان كافرا، تجده دائما يشتكي، فإذا جاءه الخير من الله عز وجل تجده يتجبر ويتكبر لأنه لا يعلم أو يتجاهل أن هذا الخير من الله، وإذا جاءه الضرر تجده يشتكي ويبكي ولا يترك أحدا إلا واشتكى إليه أو مكانا إلا واشتكى فيه، فهو يشكو ربه إلى الناس لأنه لا يعرف أن ذلك يمكن أن يكون خيرا بالنسبة له.

فرق كبير، إذن؛ بين المؤمن وبين الكافر، المؤمن يأتيه البلاء فيحس معه بنعمة الله، أما الكافر فهو في كل الحالات يحس بالشقاء، لماذا؟ لأن الكافر لا يحسُّ بالسند، لا يحس أن هناك من يسنده في هذه الدنيا، حتى والديه وأولاده لا يثق فيهم، وعندما يحتاجهم لا يجدهم، وهذا أمر معروف ومشاهد في بلاد الكفر. ولأن الكافر يشعر أنه لا يوجد من يسنده في هذه الحياة، فهو يشعر بنفسه أنه مجرد هباءة في مهب الريح، لا يطمئن لشيء، ولذلك تجده يلجأ إلى الخمر وإلى

المخدرات وينغمس في المعاصي والمنكرات حتى يغطي ما يشعر به من خوف ومن ضياع وينسى الهموم التي تقض مضجعه وتزلزل كيانه.

الكفر أشنع أنواع الظلم

ثم إن الكفر ظلم، بل من أفظع أنواع الظلم، هو ظلم لله سبحانه وتعالى، الوجود كله يسبح بحمد الله، كل الكائنات تسبح بحمد ربها سبحانه وتعالى ماعدا الكافرين من الثقلين الإنس والجن فهم لا يريدون أن يسبحوا الله تعالى بل يتنكرون لحقه عز وجل عليهم، أليس هذا ظلما؟

والكفر ظلم للنفس، فالإنسان عندما يكفر يكون قد أهان نفسه، فكيف ينتظر بعد ذلك الإكرام؟ الكفر إهانة للنفس، لأن الإنسان لا يجد كرامته إلا حين يعبد ربه، عندما يترك هذا الموقع يسقط في الإهانة، فيصبح مهانا ومتعرضا للإهانة.

الكون كله يتضرر من الكافر، فبسبب الكفر فسد الكون كله: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم: 41]، لأن الإنسان عندما يكفر سيرتكب المعاصي، وكل معصية ترتكب تكون تشويها للكون وتشويها للبيئة.

الكفر إفساد في كل شيء وتشويه لكل الحقائق وطمس لها، ولذلك المؤمن "يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار".

في ظلال السنة النبوية الشريفة

شروط ضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية(1)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلاَثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ حَلاوَةَ الإيمان: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِواهُمَا، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ».



أ.د/ مسعود فلوسي*

ثلاث خصال تحقق حلاوة الإيمان

الأولى: حب المؤمن لله ورسوله أكثر من أي شيء ومن أي إنسان مهما كان، حتى وإن كان الوالدين أو النفس أو الزوج أو الأولاد.

الثانية: إذا أحب المؤمن إنسانا فهو يحبه لله فقط، وليس لأي مصلحة أو منفعة، وإذا أبغض إنسانا فهو يبغضه لله، وليس لأنه ليس له فيه فائدة أو منفعة، فهو يحب لله ويبغض لله.

الثالثة: أن يكره المؤمن أن يعود في الكفر كما يكره أن يُرمى في النار، وهل هناك من يحب أن يُرمى في النار؟

هذه الخصال الثلاثة من شعب الإيمان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا أن من لم تتوفر فيه هذه الخصال الثلاثة لن يجد حلاوة الإيمان، ومن توفرت فيه وجد حلاوة الإيمان.

«ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان»، ولابد من وقفة مع هذه الكلمة «حلاوة الإيمان».

ما معنى حلاوة الإيمان؟

لكل شيء تستحبه النفس حلاوة، فكل ما يُستلذ وتستطيبه النفس له حلاوة؛ الماء له حلاوة، الطعام له حلاوة، النوم له حلاوة، الزواج له حلاوة، الذرية لها حلاوة، الصيد والسياحة وكل شيء مما يستمتع به الإنسان له حلاوة وله لذة يستشعرها الإنسان، كذلك الإيمان له حلاوة.

لماذا يحب الإنسان شيئا من الأشياء؟ لأن له حلاوة في نفسه، الإيمان كذلك له حلاوة لا يستشعرها من لا تتوفر فيه هذه الخصال.

والحلاوة بطبيعتها لا يمكن لأحد أن يصفها لغيره، لأنها إحساس، والإحساس لا يوصف أو يُنقل إلى الغير، فحلاوة شيء ما لا يدركها إلا من تذوق ذلك الشيء واستمتع به، فكذلك الإيمان لا يحس حلاوته إلا من أدرك حقيقته.

وحلاوة الإيمان لا تدانيها ولا تساويها ولا تماثلها ولا حتى تقاربها أي حلاوة أخرى؛ فأعظم حلاوة وألذ حلاوة هي حلاوة الإيمان، لأن الإيمان الحقيقي سكينة في النفس وراحة في القلب وانسجام مع الوجود كله.

وهذه الحلاوة تنعكس على حياة الإنسان وتظهر فيها، فتظهر في شخص الإنسان، وتظهر في معاملاته، وتظهر في طريقة تفكيره، وتظهر في طموحاته في الحياة، وفي كل شؤون حياته. ولا يدرك حلاوة الإيمان إلا من توفرت فيه خصال الإيمان.

وقد يكون الإحساس بشيء من الحلاوة الإيمانية متحققا في نفس كل مؤمن، لكن هذا الإحساس درجات، فالناس ليسوا جميعا في مرتبة واحدة من الإيمان، وإنما يتفاوتون في مراتب الإيمان، ولذلك يتفاوتون فيما يستشعرونه من حلاوته، فكل منهم يستشعر منها بقدر درجته من الإيمان، والمرجو من الله عز وجل أي لا يحرم مؤمنا من شيء من هذه اللذة والحلاوة.

حب الله ورسوله أكثر مما سواهما

أول هذه الخصال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

بمعنى: أن يستولي حب الله عز وجل، ثم حب رسوله صلى الله عليه وسلم، على قلب الإنسان، فكل ما يتعارض مع حب الله عز وجل ومع حب رسوله صلى الله عليه وسلم، لا ينبغي للإنسان أن يحبه، بل يجب عليه أن يكرهه لأنه يتعارض مع حب الله. فكل ما هو مبغوض عند الله عز وجل، وكل ما يتسبب للإنسان في سخط الله فالمؤمن يكرهه لأن الله عز وجل يكرهه، وكل ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من عبده ويثيبه عليه، فالمؤمن يحبه لأن الله عز وجل يحبه.

«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، هذا أمر منطقي، فليس غريبا أن المؤمن يحب رب العالمين ويحب الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرهما؛ أكثر من نفسه، وأكثر من والديه، وأكثر من زوجته، وأكثر من أولاده، وأكثر من ماله، وأكثر من كل شيء في هذا الوجود.

منطق العقل ومنطق الفطرة ومنطق الواقع يوجب أن يكون الله عز وجل أحب إلى الإنسان من نفسه ووالده وزوجه وولده ومن أي شيء في هذا الوجود.

لماذا؟ لأن الإنسان يحب غيره بحسب فضل هذا الغير عليه، فكلما كان هناك من يسدي له الخير أكثر كان حبه له أكثر، المنطق يقول هذا، فلا يمكن أن يكون من أسدى إليك معروفا مرة تحبه أكثر ممن يسدي إليك في كل يوم أنواعا وألوانا من المعروف.

حب الله في الدرجة الأولى

من يسدي إلى الإنسان من الخير أكثر من رب العالمين؟ من في هذا الوجود له فضل عليك أيها الإنسان أكثر من ربك عز وجل؟ من خلقك؟ من أحسن صورتك؟ من أكمل أعضاءك؟ من أكرمك بالحياة؟

من أغدق عليك نعمه حتى قبل أن تخرج إلى الدنيا وأنت في بطن أمك؟ ثم بعد أن خرجت من بطن أمك إلى هذه الدنيا، ثم وأنت تتدرج في مراحل النشأة والتربية وتكبر شيئا فشيئا حتى تصبح إنسانا عاقلا مميزا قادرا على فعل ما تريد، من يرعاك بالحفظ وبالرزق وبالستر وبالحماية طيلة حياتك؟ من يفعل ذلك غير الله عز وجل؟

الإنسان لو أراد أن يسجل نعم الله عليه، يجلس مع نفسه ويبدأ في عد هذه النعم في اليوم الواحد، سيملأ سجلا كاملا ولا ينتهي، لأنه في كل لحظة، في كل ثانية، هناك نعمة أو أكثر تحل به، بل نعم متراكمة تحيط به في كل ثانية.

ينابيع من النعم مفتوحة ومتدفقة، نِعَمٌ لا يمكن للإنسان أن يحسبها أو يحصيها.

أفيمكن للإنسان العاقل أن يتصور أن هناك من له فضل عليه أكثر من ربه عز وجل؟

الإنسان لا يحتاج إلى براهين: {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[الذاريات: 21]، لا يحتاج إلى براهين أو أدلة على أن الله عز وجل صاحب الفضل الأول وصاحب النعمة العظمى عليه، والذي يطلب الأدلة هو الإنسان الذي يجحد نعم الله عز وجل وينكر فضل الله سبحانه وتعالى عليه في هذه الدنيا.

محبة الله عز وجل، إذن، مما فُطر عليه الإنسان، فرب العالمين عز وجل عندما يخلق أي إنسان يفطره على حبه سبحانه وتعالى، لأنه محتاج إليه، أي أن الإنسان يشعر بحاجته إلى ربه عز وجل.

لماذا ينسى الإنسان نعم الله عليه؟

ما الذي يجعل الإنسان ينسى نعم الله وفضل الله وحاجته إلى الله؟

إنه التعود على النعم، التعود ينسي، تعود النعمة يُنسي مصدرها، فالإنسان عندما يتعود على نعمة تصبح بالنسبة له حقا مكتسبا، يحسب أنه هو الذي يوفر هذه النعمة لنفسه، وينسى أن هناك من يمده بهذه النعمة وبهذا الفضل. فنحن من كثرة ما تمرغنا في نعم رب العالمين، ومن كثرة ما يغدق علينا عز وجل من النعم، من استمرار هذه النعم وعدم انقطاعها نسينا مصدر هذه النعم وحسبناها حقا مكتسبا، وكأن كلا منا يقول في نفسه: ما دمت حيا وما دمت موجودا فهذه النعم حق، وهي لابد أن تأتيني دون أن أطلبها.

هذا هو الخطأ الذي يقع فيه الإنسان ويجعله يجحد نعم الله عز وجل وفضله سبحانه وتعالى عليه.

ذكر الله وشكره وسيلة لتذكر نعمه

ولكي لا ينسى الإنسان نعمة الله وفضله سبحانه وتعالى عليه، شرع لنا ربنا عز وجل أن نذكره ونشكره: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[البقرة: 152].

ورب العالمين أنزل علينا القرآن لنذكره به، فتلاوة القرآن ذكر، وتسبيح الله عز وجل ذكر، حمد الله سبحانه وتعالى ذكر، تكبيره عز وجل ذكر، وما أكثر أنماط الذكر.

ومما يجعل الإنسان على ذكر دائم لنعم الله عز وجل عليه؛ أن يعرف أسماءه وصفاته سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}[الأعراف: 180] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إِلَّا واحِدًا، مَن أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» [رواه البخاري]، لأن من يحصيها يعرف رب العالمين ولا ينساه أبدا ولا يجهل قدره سبحانه وتعالى، فهذه الأسماء تتضمن كلها نعم الله عز وجل على عباده، والإنسان عندما يحفظها ويحسن التصرف في هذه الحياة في ضوء كل اسم من هذه الأسماء، تصبح حياته كلها في رحاب الله عز وجل وفي إطار ذكر الله عز وجل وفي ظل طاعة الله سبحانه وتعالى.

حب الله ليس مجرد دعوى

ما أكثر الذي يدَّعون حب الله عز وجل، كل مؤمن يقول أنا أحب الله سبحانه وتعالى، ولكن معيار الصدق في هذا الحب هو الواقع، فإذا أردت أن تعرف مدى صدقك في حبك لله عز وجل فانظر موقفك من أوامره ونواهيه في حياتك، زن نفسك بنفسك، انظر في أوامر الله عز وجل هل أنت حريص على إنفاذها في حياتك؟ هل تسعى إلى أن تعرف ما يحبه الله عز وجل لكي تفعله؟ وهل تسعى إلى أن تعرف ما لا يحبه الله حتى تبتعد عنه وتجتنبه؟

عندما تسمع قول الله تعالى: افعل كذا، هل تشعر أنه يجب عليك القيام مباشرة بإنفاذ هذا الأمر أم تبقى مترددا هل تفعل أم لا تفعل وتظل توازن بين ما يكون في ذلك من مصلحة دنيوية أو لا يكون. ونفس الأمر فيما نهى الله عز وجل عنه.

عندما تسمع النداء للصلاة وأنت مشغول بمشاغل دنيوية، هل تسارع إلى الصلاة وتترك أمور الدنيا بعد ذلك مؤملا في تيسيرها من الله عز وجل، أم تقول في نفسك: الصلاة لها وقت فلأقض أولا مشاغلي حتى لا تذهب ثم أصلي؟

هذا هو الامتحان الذي نسقط فيه عادة، فمعظم الناس يسقطون في امتحان العمل.

إن حب الله عز وجل ليس مجرد مشاعر، ولا مجرد عاطفة تشعر بها في قلبك ثم لا يكون لها تصديق في واقعك. حب الله عز وجل ينبغي أن يظهر في واقع الإنسان، وفي كل مجالات حياته.

يتبع



في ظلال السنة النبوية الشريفة

شروط ضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية (2)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حَلاَوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ».



أ.د/ مسعود فلوسي*

محبة الرسول تابعة لمحبة الله

محبة النبي صلى الله عليه وسلم، تأتي في الدرجة الثانية مباشرة بعد حب الله عز وجل، وسابقة على حب أي مخلوق أو شيء آخر، لماذا؟ لأن فضله صلى الله عليه وسلم على الإنسانية، سابق على أي فضل آخر بعد فضل الله عز وجل، محمد صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الذي كلفه ربه عز وجل بأعظم مهمة فأداها على خير ما ينبغي أن تؤدى عليه.

فمنذ أن خلق الله عز وجل الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم يوجد في الناس مخلوق أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذي قدم للبشرية – بعد الله عز وجل – أعظم خدمة.

البشرية قبل أن يُبعث محمد صلى الله عليه وسلم، كانت تعيش في ظلام دامس، الديانات السماوية كانت قد حرفت تماما ولم يبق فيها شيء من الدين الصحيح، عبادة الاوثان عمت الجزيرة العربية وغيرها، الناس صاروا يعبدون كل شيء إلا الله.

فالبشرية كانت في موت، لأن الحياة ليست هي الأكل والشرب والنمو والتزاوج والتناسل، هذه حياة لا يفترق فيها الإنسان عن الحيوان. حياة الإنسان في علاقته بربه، وقبل أن يأتي محمد صلى الله عليه وسلم، كانت علاقة الناس بربهم قد انقطعت تماما، وصاروا موتى، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة الخاتمة التي بعثه بها ربه عز وجل، وأحيا بها الناس من جديد. لم يُحْيِ النبي صلى الله عليه وسلم قومَه أو قبيلتَه أو قريته أو البلاد المحيطة بها فحسب، لقد أحيا الدنيا كلها.

وهنا نلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام جمع في خصلة واحدة بين حب الله وحب نبيه صلى الله عليه وسلم، بمعنى أنهما لا ينفصلان؛ فالذي يحب الله عز وجل بالضرورة يحب محمدا صلى الله عليه وسلم، والذي يحب محمد صلى الله عليه وسلم هو بالضرورة يحب قبل ذلك ربه سبحانه وتعالى.

لا يجوز أن تحب مخلوقا أكثر من محمد

محمد صلى الله عليه وسلم هو الأوْلى بحب الإنسان المؤمن بعد الله عز وجل، فالإنسان المؤمن لا يُتصور منه أن يحب أحدا – بعد الله عز وجل – أكثر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى نفسه التي بين جنبيه.

ينبغي أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم أحب إليك من نفسك ومن والديك ومن زوجك ومن أولادك ومن أقاربك ومن سائر الناس، وأن يكون أحب إليك من كل شيء في هذا الوجود، لماذا؟

لأنه لا فضل لأحد بعد الله عز وجل على المسلم، كما لمحمد صلى الله عليه وسلم.. بفضل محمد صلى الله عليه وسلم وُجدت هذه الأمة، وبفضل محمد صلى الله عليه وسلم اهتدى الناس إلى الحق، وبفضل محمد صلى الله عليه وسلم سيدخل المؤمنون الجنة وسينجيهم الله عز وجل من عذابه يوم القيامة، هل هناك أفضال أكثر من هذه؟

الإنسان عندما ينظر إلى فضل والديه عليه يجده لا يقارن مع فضل محمد صلى الله عليه وسلم، مهما بذل والداك في سبيلك، مهما وفرا لك، مهما أحاطاك بالعناية والرعاية، فضلهما لا يبلغ فضل محمد صلى الله عليه وسلم.

وأولادك إذا أصلحهم الله، مهما أرادوا أن يكافئوك بعد ذلك على ما فعلته معهم أو من أجلهم، لن يبلغ فضلهم عليك فضل محمد صلى الله عليه وسلم.

فليس هناك من له فضل عليك، أيها الإنسان المؤمن، بعد الله عز وجل مثل ما لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

فنحن نحب محمدا صلى الله عليه وسلم لفضله علينا، وحتى إذا لم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم فضل، لأن الفضل كله لله عز وجل فهو الذي بعثه وهو الذي هداه وهو الذي وفقه، فيكفي أن الله يحبه، وأمرنا بحبه، والمؤمن يحب من يحبه الله عز وجل، وهذا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحبوا الله لما يغْذوكم من نعَمه، وأحبُّوني بحُبِّ الله» [رواه الترمذي]؛ بمعنى أحبوا رب العالمين لَما أحاطكم به من النعم، وأحبوا محمدا صلى الله عليه وسلم لأن الله سبحانه وتعالى يحبه.

حب محمد من صميم الإيمان

حب محمد صلى الله عليه وسلم من الإيمان، بل هو من شروط الإيمان، فلا يصح الإيمان ولا يصدق إلا إذا كان الإنسان يحب محمدا صلى الله عليه وسلم، والإنسان الذي يدعي الإسلام ولا يحب محمدا صلى الله عليه وسلم هو كذاب، وكل الدلائل قائمة على كذبه، إذ كيف تحب الله عز وجل ولا تحب من يحبه الله؟ كيف تقول أنا مسلم ولا تحب من جاءك بهذا الإسلام؟ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْه من والده ووَلَده والنَّاس أجْمَعينَ» [رواه البخاري].

فمحَمَد صَلى اللهَ عليه وسلم هو أجدر الناس بالحب، وحبه يجب أن يقدم على حب أي شيء آخر، عن عبد الله بنِ هشامٍ رضي اللهِ عنه قال: كُنَّا مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو آخذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَقالَ لهِ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّه، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ من كُلِّ شَيْءٍ إلَّا مِن نَفْسِي، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: «لا، والَّذِي نَفْسِي بيَدِه، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِن نَفْسِك»، فَقالَ له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللَّه، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ من نَفْسِي، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّمَ: «الآنَ يا عُمَرُ» [رواه البخاري]، يعني الآن حققت الإيمان الصحيح، الآن بلغت الدرجة المطلوبة من الإيمان وهي أن تحب محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر من نفسك.

حب محمد صلى الله عليه وسلم من حب الله، ولذلك المؤمن حريص على تقوية هذا الحب في قلبه، لا يكفي أن تقول إني أحب محمدا صلى الله عليه وسلم، عليك أن تقوي هذا الحب، وهذا الحب لكي تقويه يجب عليك أن تقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعرف أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم التي قال مدحه بها ربه عز وجل في قوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: 4]، وتكفي شهادة الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نحتاج إلى شهادة أخرى تشهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بكمال الأخلاق.

محمد هو الإنسان النموذج

محمد صلى الله عليه وسلم أعطانا المثل من نفسه، وجعله الله عز لنا نموذجا لنفهم أن الإسلام ليس مجرد مثاليات وإنما هو واقع تجسد في شخص اسمه محمد بن عبد الله، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن مَلَكاً، لم يكن شخصا استثنائيا، كان إنسانا بكل معاني الإنسانية، عاش كإنسان، لم يكن عنده شيء زائد على غيره من البشر، ومع ذلك استطاع أن يجسد هذا الدين في سلوكه وفي حياته وفي علاقاته.

ورب العالمين سبحانه وتعالى جعل لنا هذا الرسول أسوة وقدوة لمن يقتدي، حتى لا يأتي أحد ويدعي أن الدين صعب، أو أن فعل الأوامر صعب، أو أن ترك المناهي صعب، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: 21].

كما أعطانا نماذج من أصحابه، صحيح أنهم لم يبلغوا ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم بلغوا الدرجة العظمى؛ الصديق أبو بكر رضي الله عنه، الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعشرات، بل مئات من الصحابة الذين رباهم محمد صلى الله عليه وسلم وبلغوا ما بلغوا في العمل بهذا الدين.

فإذن، محمد صلى الله عليه وسلم يستحق الحب لأن الله يحبه، وهو يستحق الحب أكثر من غيره لأنه لا فضل لأحد على الناس بعد الله عز وجل كما لمحمد صلى الله عليه وسلم، ومحمد صلى الله عليه وسلم جدير بالحب لأنه بلغ الغاية في أخلاقه وفي معاملاته.

حب محمد ليس مجرد عاطفة في القلب

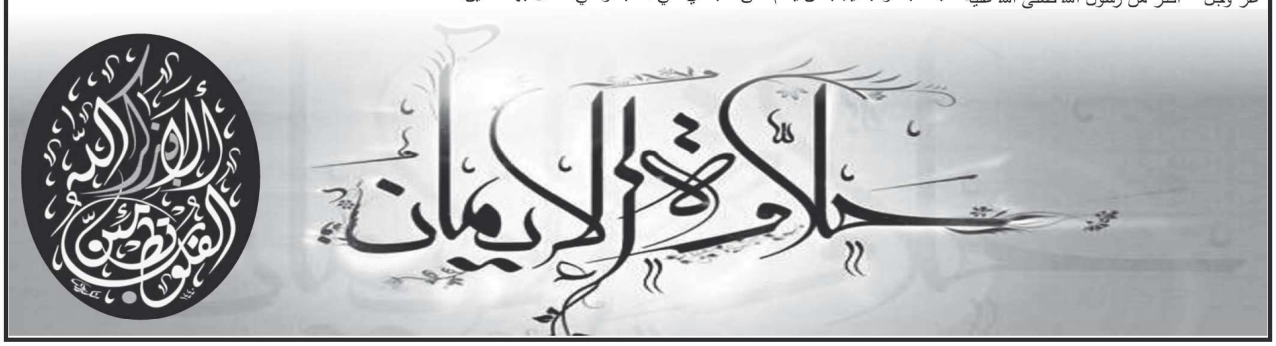
حب محمد صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يكون مجرد عاطفة، أو مجرد دعوى، لأن الادعاء يحسنه كل الناس، لابد من البرهان، لابد من دليل على الصدق في حب محمد صلى الله عليه وسلم، وأول دلائل هذا الصدق حب ما يحبه محمد صلى الله عليه وسلم وحب من أحبه محمد صلى الله عليه وسلم وحب كل تصرف كان يعمله محمد صلى الله عليه وسلم، فالحب سلوك وعمل وممارسة في الواقع.

لا يمكن لإنسان أن يحب محمدا صلى الله عليه وسلم ويكره سنة من سننه، أو يسمع كلام محمد صلى الله عليه وسلم ويقول دعونا من هذا الكلام فقد تجاوزه الزمن أو هذا كلام القرون الخالية أو ما إلى ذلك، ثم يقول أنا مسلم وأحب محمدا صلى الله عليه وسلم، أين حب محمد صلى الله عليه وسلم وأنت تنكر كلامه وتعتبره كلاما لم يعد له معنى في هذا العصر؟

حب محمد صلى الله عليه وسلم يقتضي العمل بسنته، ويقتضي التمسك بما جاء به عليه الصلاة والسلام، محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالقرآن والسنة، وكلاهما وحي من الله عز وجل، والعمل بهما مطلوب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسَّكتم بهما: كتاب الله، وسُنَّة رسوله» والحديث مروي في موطأ الإمام مالك، فالكتاب والسنة هما الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والمسلم لا يكون مسلما حقا إلا إذا عمل بما في القرآن وعمل بما في السنة، لا يكفي القرآن وحده ولا تكفي السنة وحدها، بل هما معا يكمل أحدهما الآخر، لأن الله عز وجل أنزل الذكر وهو القرآن، وأمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبين هذا الذكر بالسنة: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: 44]، (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [آل عمران: 31].

فإذا كنت صادقا في دعوى حب الله عز وجل وفي دعوى حب محمد صلى الله عليه وسلم، فالشرط الأول لتصدق في هذه الدعوى هو أن يظهر ذلك في سلوكك وفي معاملاتك وفي علاقاتك، وهو أن تتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

يتبع



في ظـلال السنـة النبويـة الشريفـة

شـروط ضروريـة لتـذوق الحـلاوة الإيمانيـة(3)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

أ.د/ مسعود فلوسي*

المؤمن محب لإخوانه المؤمنين

الخصلة الثانية الضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية: «أن يحب المرء لا يحبه إلا الله».

فالمؤمن عندما يحب مؤمنا آخر، فهو يحبه لله، ليس لمصلحة ولا لمنفعة بينهما، وإذا أبغض شخصا آخر فهو يبغضه لأنه يعصي الله أو لأنه يفعل فعلا لا يرضاه الله عز وجل، قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الإِيمَانِ: أَنْ تُحبَّ في الله، وَتُبْغَضَ في الله» [رواه أحمد]، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: «من أحب في الله وأبغض في الله وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان» [رواه أبو داود].

المؤمن يحب أخاه المؤمن لأنه مؤمن وفقط، ولا يُتصور من المؤمن ألا يحب المؤمنين، لأن هذا أيضا شرط في صدق الإيمان، فالرابطة التي تربط بين المؤمنين هي الإيمان، وهذه الرابطة جعلها الله عز وجل أقوى الروابط وأعظم الروابط وأوثق الروابط، لأنها الرابطة الدائمة والرابطة الجامعة بين المؤمنين، ليس في الدنيا فقط وإنما في الآخرة أيضا، فهي الرابطة التي لا تنقطع.

قد يفترق المؤمنان وقد يتباعدان وقد يطول الزمان على فراقهما لأسباب، ولكن تبقى المشاعر قائمة، مشاعر الحب على الإيمان، لأن كلا منهما يحب الله عز وجل ويحب رسوله صلى الله عليه وسلم، فكل واحد منهما يحب الآخر لأنه يحب الله وسوله ويحب الإسلام ويؤمن به ويطبق أحكامه ويدعو إليه ويرجو أن يؤمن جميع الناس به.

الإيمان رابطة عظيمة، ولذلك لا يُتصور أن يكون الإنسان مؤمنا حقا ولا يحب إخوانه المؤمنين، أو يُبغض إخوانه المؤمنين، أين الإيمان إذن؟

الإيمان الصحيح هو الذي يجعل المؤمن يحب المؤمنين جميعا، لأنهم يحبون الله عز وجل ويطيعونه، هذا فقط وهو أهم شيء وأعظم شيء، أما أمور الدنيا فمتغيرة ومتبدلة، قد تجمعك تجارة مع شخص أو يجمعك عمل ما مع آخر، أو تجمعك مصلحة منها المصالح مع غيرك، لكن هذه كلها ليست ثابتة.

العلاقة بين المؤمنين ليست علاقة قائمة على المتغيرات، هي علاقة قائمة على الثوابت، لأن المتغيرات كثيرا ما كانت سببا في مصائب.

لذلك، لا ينبغي للإنسان أن يربط مودته ومشاعره بالمتغيرات، وإنما يجب أن يربطها بالثوابت، والثابت الأعظم هو ثابت الإيمان، لأنه وصف ليس للشخص، وإنما لسلوك هذا الشخص ولوجوده في الحياة.

المتحابون في الله يحبهم الله ويكرمهم

وصف الإيمان إذن، وصف يستحق به المؤمن أن يكون محبوبا لإخوانه، وإذا أحب إخوانه وأحبوه حبا خالصا لله وليس وراءه قصد دنيوي أحبهم الله عز وجل، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «أَنَّ رَجُلاً زارَ أخًا له في قَرْيَةٍ أُخْرَى، فأرْصَدَ اللَّهُ له، على مَدْرَجَته، مَلَكًا فلمَّا أتَى عليه، قال: أيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أخًا لي في هذه القَرْيَة، قال: هَلْ لكَ عليه من نِعْمَة تَرُبُّها؟ قال: لاَ، غيرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ في الله عَزَّ وجل، قال: فإنِّي رَسول الله إلَيْك، بأنَّ اللَّهَ قدْ أحَبَّك كما أحْبَبْتَهُ فيه» [أخرجه الترمذي].

ولذلك فإن من بين من يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا يظل إلا ظله؛ وهو يوم القيامة، هم المتحابون فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِله يَوْمَ لا ظِلَّ إلَّا ظلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة اللَّه تعالى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِد، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في الله: اجتمَعا عَلَيه، وتَفرَّقَا عَلَيه، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِب، وَجَمَال فقَالَ: إِنِّي أخافُ الله، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَة فأخْفَاها، حتَّى لا تَعْلَمَ شمالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خاليًا ففاضَتْ عَيْنَاهُ» [متفق عليه].

بل إن إكرام الله عز وجل يوم القيامة لعباده المتحابين فيه ليزيد ويتعدد ويتنوع حتى يغبطهم عليه النبيون والشهداء.

عن أبي مالك الأشعري قال: ... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى صلاته أقبل علينا بوجهه فقال: «يا أيها الناس، اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله عز وجل عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم، وقربهم من الله». فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ناس من المؤمنين ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم [من الله]؟ انعتهم لنا، حلهم لنا – يعني صفهم لنا – شكلهم لنا، فسُر وجه النبي صلى الله عليه وسلم بسؤال الأعرابي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» [رواه أحمد].

وسائل إشاعة المحبة بين المؤمنين

وحتى تنتشر المودة بين المؤمنين وتتوثق عراها، فعليهم أن يتخذوا الأسباب لذلك ويحرصوا عليها، ومن ذلك؛ تبادل التحية بالسلام بينهم، أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [الترمذي].

فإفشاء السلام من وسائل نشر المحبة بين المؤمنين، فأنت ربما لا تعرف شخصا ما ولم تتعامل معه، ولكنك تحبه لأنه يلقي عليك السلام دائما. لماذا في واقعنا اليوم لا توجد مودة بين المؤمنين؟ لأنه لا أحد يلقي السلام على أحد، وقد تجد من يلقي السلام على غيره فلا يرد عليه، والبعض إذا سلمت عليه لا يرد السلام بمثله وإنما بلفظ آخر، كأن يقول: بخير، هذه ليست تحية، التحية هي: السلام عليكم، وردها هو: وعليكم السلام، أما (بخير) هذه فليست تحية وليس فيها أجر عند الله إطلاقا، أما التحايا الأخرى المستوردة من الكفار، فهذه ليست من تحية الإسلام في شيء.

ومن وسائل المحبة بين المؤمنين كذلك؛ الاجتماع على الصلاة، صلاة الجماعة، فالمفروض كل مؤمن يحرص على حضور صلاة الجماعة حتى يشعر بدفء المودة والمحبة بينه وبين إخوانه.

ومن ذلك أن يخبر الإنسان المؤمن إخوانه المؤمنين بمحبته لهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أحبَّ أحدُكمْ صاحبَه فليأته في مَنزله، فليُخبرْه أنَّهُ يُحبُّه لله» [رواه أحمد]، وقال صلَى الله عَليه وسلَم: «إذا أحبَّ أحدُكم أخاه في الله فليُعلمْهُ، فإنَّهُ أبْقَى في الألْفة، وأثْبَتُ في المَودَّةَ» (صَحيح الجامع؛ برقم: [280]، حديث حسن).

وعَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا كَانَ عنْدَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، فَمَرَّ به رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه! إنِّي لَأُحبُّ هَذَا. فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «أَعْلَمْتَهُ؟»، قَالَ: لَا. قَالَ: «أَعْلمْهُ». قَالَ: فَلحقَهُ فَقَالَ: إنِّي أُحبُّكَ في اللَّه. فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذي أَحْبَبْتَني لَهُ. [رواه أبو داود]. فإذا كنت تحب إنسانا فأخبره بمحبتك وأظهر له مودتك، حتى يبادلك نفس المودة والمحبة، وبذلك تشيع المحبة بين المؤمنين، وتشيع الأخوة، ويشيع التراحم، ويشيع التعاون، ويشيع الشعور المتبادل بين الناس.

ومن هذه الوسائل؛ قيام المؤمنين لبعضهم البعض بحقوق الأخوة الإسلامية، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلم عَلَى الْمُسْلم ستٌّ: إذَا لَقيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْه، وإذَا دَعَاكَ فَأَجبْهُ، وإذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْهُ، وإذَا عَطَسَ فَحَمدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ، وإذَا مَرضَ فَعُدْهُ، وإذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ» [رَوَاهُ مُسْلمٌ].

وعن أبي عمارة البراء بن عازب رضي اللَّه عنهما قَالَ: «أَمرنا رسولُ اللَّه ﷺ بسبْع، ونهانا عن سبع: أمرنَا بعيادة المريض، واتِّبَاعِ الجنازة، وتَشْميت العاطس، وإبْرَار المُقسم، ونَصْر المَظْلُوم، وإجابَة الدَّاعي، وإفْشاء السَّلام. ونَهانَا عَنْ خَوَاتيمَ – أو: تَخَتُّم بالذَّهب – وعَنْ شُرْب بالفضَّة، وعَن المَياثر الحُمْر، وعَن القَسِّيِّ، وعَنْ لُبْس الحَرير والإسْتَبْرَق والدِّيبَاج» [مُتَّفَقٌ عليه].

ومنها كذلك؛ التزاور والتباذل والتجالس في الله وابتغاء مرضاة الله، عن مُعَاذ بْن جَبَل رضي الله عنه، قال: أَنِّي سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يقول: «قالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحبَّتي للْمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتَجالسينَ فيَّ، والمُتَزَاورينَ فيَّ، والمُتَبَاذلينَ فيَّ» [رواه مالك في الموطأ].

ترك ما يدعو إلى التباغض بين المؤمنين

ومن وسائل ثبات المحبة وتوثقها بين المؤمنين؛ أن يُعرضوا عن كل ما من شأنه أن يفسد المودة بينهم ويؤدي إلى تسرب البغضاء والكراهية – تجاه بعضهم البعض – إلى نفوسهم، مثل السخرية والغيبة والنميمة والحسد وسوء الظن والتحسس والتجسس. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) [الحجرات: 11-12]. وعن الزُّبير بن العَوَّام رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبَغْضَاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين» [رواه الترمذي وأحمد]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: «إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» [متفق عليه]. وعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: «سيصيب أمَّتي داء الأمم، قالوا: يا نبيَّ الله، وما داء الأمم؟ قال: الأَشَرُ والبَطَرُ، والتَّكاثر والتشاحن في الدُّنيا، والتَّباغض، والتَّحاسد حتى يكون البغي ثمَّ الهرج» [رواه الطبراني والحاكم].

إن الدين ليس كلاما مجردا أو دعاوى فارغة، ليس دعاوى، ليس مجرد عواطف في القلب، إنه سلوك واقعي وممارسة عملية.

فإذا كنت تحب الله فيجب أن يظهر حبك له في الواقع، وإذا كنت تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فينبغي أن يظهر حبك له في الواقع، وإذا كنت تحب إخوانك المؤمنين، عليك أن تظهر هذا الحب في الواقع.

يتبع



في ظلال السنة النبوية الشريفة

شروط ضرورية لتذوق الحلاوة الإيمانية (4)

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يَكُونَ اللَّهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ».



أ.د/ مسعود فلوسي*

المؤمن يكره الكفر

الخصلة الثالثة من الخصال المؤهلة لتذوق الحلاوة الإيمانية: «أَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكفر كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»، وفي رواية: «وأنَ يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار». أي أن المؤمن الصادق لا يخطر في باله نهائيا أن يعود إلى الكفر، إطلاقا، وحتى إذا خطر في باله هذا الأمر فلا يمكن أن تتقبل أن يتصور نفسه وقد أصبح في يوم من الأيام كافرا أو منقلبا إلى الكفر والعياذ بالله.

رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا يعطينا لفتة، يقول: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه» كما في الرواية الثانية.. الإنقاذ كيف يكون؟

عندما يكون إنسان على وشك التهلكة، أي مشرفا على الهلاك، فيأتي من يأخذ بيده ويخرجه إلى بر الأمان هذا هو معنى الإنقاذ، إخراج إنسان مشرف على الضياع والهلاك من المأزق الذي وقع فيه والأخذ بيده إلى الأمان والسلامة. فكذلك الكفر عبارة عن تهلكة، الكفر عبارة عن بئر عميقة لا قرار لها، الكفر عبارة عن بحر خضم هائج أمواجه متلاطمة لا يمكن لإنسان أن ينجو إذا بقي فيه.

هذه صورة الكفر، ولذلك فالإنسان المؤمن يعرف أن رب العالمين أنقذه من التهلكة، ويعرف معنى الإيمان، ومعنى أنه مؤمن وليس كافرا، يعرف أن الله أنقذه، يعرف أن الله أخذ بيده وسحبه من حال الهلاك والضياع والغرق إلى حال السلامة والأمان والطمأنينة.

المؤمن يعرف معنى الإيمان، لأن الإيمان هو تعلق بالله عز وجل، هو تنعم بعبادته سبحانه وتعالى، هو عيش في رحاب الله عز وجل، هو شعور بالتواصل مع الله سبحانه وتعالى، هو إحساس بلذة الإيمان وبلذة العبادة وبلذة الطاعة وبلذة الذكر وبلذة مراقبة الله عز وجل وبلذة الخوف منه سبحانه وتعالى.

فالإيمان نعمة عظيمة ينعم الله عز وجل بها على من يشاء من عباده.

والدليل ما نراه في الدنيا، فليس كل الناس أعطاهم الله هذه النعمة، وليس كل الناس وفقوا لهذا الخير الذي هو الإيمان. فرب العالمين أنقذنا بهذا الإيمان وتفضل علينا بهذا الفضل، وعلينا أن نستشعره ونعرف قيمته.

ولكي تعرف قيمة الإيمان والطاعة، عليك أن تتصور نفسك في حالة المعصية كيف تكون؟ فالإنسان يعرف قيمة نعمة الإيمان عندما يقارنها مع ما يكون فيه العصاة والضالون والمنحرفون.

الإيمان، إذن إنقاذ من الله عز وجل للإنسان، ولذلك الإنسان المؤمن يكره بشدة أن يعود إلى ما كان عليه قبل أن ينقذه الله بالإيمان.

الكفر نار حارقة

النار تحرق، والإحراق أشد أنواع العذاب.

المؤمن لا يقبل أن يُرمى في النار، ولذلك لا يقبل أن يعود في الكفر، لأن الكفر نار.

كما أن النار تحرق الجانب الحسي، الكفر يحرق الجانب المعنوي من حياة الإنسان.

الإنسان لماذا هو إنسان؟ بالإيمان، بالعيش في رحاب الله عز وجل، باتباع أوامر الله سبحانه وتعالى وترك ما نهى عنه. يحقق الإنسان إنسانيته عندما يحقق العبودية، لأن الله عز وجل خلقه ليعبده، فعندما يعبد الله يكون إنسانا على الحقيقة، وعندما يتخلى عن هذه المهمة ويعصي رب العالمين تغيب إنسانيته ولا يكون حينئذ إنسانا على الحقيقة، بل يكون مجرد كائن غافل عن مهمته وغافل عن حقيقته، فلا يعيش حقيقته كإنسان، لأن رب العالمين يقول: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: 56]، فمن لا يعبد الله لا يعتبر إنسانا على الحقيقة، وإنما يكون إنسانا حين يحقق وصف العبودية لله عز وجل.

الإنسان عندما يخرج عن إنسانيته يحترق، كالشيء الذي ترميه في النار فأنت تحرقه، كذلك الإنسان حين يبتعد عن ربه عز وجل ويتبع الشيطان أو يتبع النفس الامارة بالسوء أو يخوض في شهوات الدنيا المحرمة فهو يحرق نفسه ويحرق شخصيته الإنسانية.

الكفر نار حارقة، ولذلك المؤمن لا يرضى لنفسه أن يحترق، خاصة الإنسان الذي جرب الكفر ثم أكرمه رب العالمين بالإيمان، هذا يعرف معنى الكفر ومعنى البعد عن الله عز وجل ومعنى أن يكون الإنسان تابعا ذليلا للشيطان، يعرف معنى ذلك كله، ولذلك يحس بأنه لما رجع إلى الله عز وجل ولما صار عبدا لله سبحانه وتعالى صار يحس بأنه ارتفع وصارت له قيمة ومكانة عالية، لأن الكفر حضيض والإيمان قيمة، ولا يقبل بالحضيض إلا السفلة الذين لا قيمة لهم والذين لا يشعرون بأهمية وجودهم في هذه الدنيا.

الكفر طمس للحقيقة

الكفر، إذن نار حارقة، لماذا؟ الكفر هو التغطية، هو الطمس، هو الإخفاء، فكلمة كفر في اللغة العربية معناها أخفى وطمس وستر وغطى الشيء حتى لا يظهر.

فالكفر هو طمس للحقيقة، الحقيقة ظاهرة يريد الكافر أن يطمسها، فيأتي بغطاء يغطيها به حتى لا تظهر، هذا هو الكفر.

الكافر ماذا يخفي؟ ما هي الحقيقة التي يخفيها الكافر ويغطي عليها ويريد أن يطمسها؟ إنها الفطرة التي فطر الله عز وجل الناس عليها، و الفطرة هي الإيمان الذي خلق الله عليه الإنسان.

عن مطرف بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلتُه عبدًا حلال، واني خلقت عبادي ضعفاء حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا...» [رواه مسلم]. فكل إنسان في أي مكان في هذا العالم، عندما يولد في هذه الدنيا، يولد مؤمنا، سواء ولد في بيت مؤمنين أو في بيت كافرين، ولكن الشياطين لم تتركهم على فطرتهم فساقت هذا إلى النصرانية، وقادت هذا إلى اليهودية، وجذبت هذا إلى المجوسية، وهكذا.

وفي الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُل مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الفطرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» [رواه الشيخان].

فما من إنسان إلا ويولد مؤمنا، فالحقيقة هي حقيقة الإيمان بالله عز وجل، الحقيقة هي أن الناس كلهم فيهم الاستعداد للإيمان بالله عز وجل وعدم الكفر به، ولكن نتيجة التغطية التي تجري على هذه الفطرة، بالتربية، بالبيئة التي يوجد فيها الإنسان، بالمصاحبة، بما يُعلم هذا الإنسان ويُلقن، هذه الفطرة تُغطى شيئا فشيئا حتى تنطمس، وهذا هو الكفر، الكفر هو تغطية الفطرة، الكفر هو طمس الاستعداد بالإيمان في قلب الإنسان، الكفر هو ستر الحقيقة عن عين الإنسان بحيث لا يراها فيتبع سبل الكفر ويبتعد عن سبيل الصواب وسبيل الحق وهو سبيل الإيمان.

مظاهر احتراق الكافر في الدنيا

الكفر، إذن، هو تغطية للحقيقة وطمس للإيمان، الكفر سبب لاحتراق الإنسان في هذه الدنيا.

أين ينشأ الميل إلى الانتحار في حياة الإنسان؟ ينشأ في ظل الكفر، الإنسان المؤمن لا يلجأ إلى الانتحار أبدا، لأنه يعرف أن كل ما يختاره له ربه عز وجل هو خير له، والحديث النبوي الشريف يقول: «عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لَلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْرا لَهُ» [رواه مسلم]، لأنه يعرف أن كل ما يأتيه من الله عز وجل فهو خير له وهو مصلحة، ولذلك إذا جاءه ما يسره فهو يحمد الله عز وجل، وإذا جاءه ما يشعر معه بالضرر وبالمشقة فهو يصبر لله لأنه يعرف أن الله لم يقدر عليه هذا إلا وله فيه خير ومصلحة.

ولذلك، قد تجد المؤمن فقيرا معدما لا يملك قوت يومه، ومع ذلك تجده يستبشر ويقول: الحمد لله. تجد المؤمن مريضا بداء عضال يعاني معه آلاما مبرحة، ومع ذلك عندما تسأله عن حاله يقول لك: نحن في رحمة الله.

من أين جاء هذا؟ من الإيمان. لكن عندما يكون الإنسان كافرا، تجده دائما يشتكي، فإذا جاءه الخير من الله عز وجل تجده يتجبر ويتكبر لأنه لا يعلم أو يتجاهل أن هذا الخير من الله، وإذا جاءه الضرر تجده يشتكي ويبكي ولا يترك أحدا إلا واشتكى إليه أو مكانا إلا واشتكى فيه، فهو يشكو ربه إلى الناس لأنه لا يعرف أن ذلك يمكن أن يكون خيرا بالنسبة له.

فرق كبير، إذن؛ بين المؤمن والكافر، المؤمن يأتيه البلاء فيحس معه بنعمة الله، أما الكافر فهو في كل الحالات يحس بالشقاء، لماذا؟ لأن الكافر لا يحسُّ بالسند، لا يحس أن هناك من يسنده في هذه الدنيا، حتى والديه وأولاده لا يثق فيهم، وعندما يحتاجهم لا يجدهم، وهذا أمر معروف ومشاهد في بلاد الكفر. ولأن الكافر يشعر أنه لا يوجد من يسنده في هذه الحياة، فهو يشعر بنفسه أنه مجرد هباءة في مهب الريح، لا يطمئن لشيء، ولذلك تجده يلجأ إلى الخمر وإلى المخدرات وينغمس في المعاصي والمنكرات حتى يغطي ما يشعر به من خوف ومن ضياع وينسى الهموم التي تقض مضجعه وتزلزل كيانه.

الكفر أشنع أنواع الظلم

ثم إن الكفر ظلم، بل من أفظع أنواع الظلم، هو ظلم لله سبحانه وتعالى، الوجود كله يسبح بحمد الله، كل الكائنات تسبح بحمد ربها سبحانه وتعالى ماعدا الكافرين من الثقلين الإنس والجن فهم لا يريدون أن يسبحوا الله تعالى بل يتنكرون لحقه عز وجل عليهم، أليس هذا ظلما؟

والكفر ظلم للنفس، فالإنسان عندما يكفر يكون قد أهان نفسه، فكيف ينتظر بعد ذلك الإكرام؟ الكفر إهانة للنفس، لأن الإنسان لا يجد كرامته إلا حين يعبد ربه، عندما يترك هذا الموقع يسقط في الإهانة، فيصبح مهانا ومتعرضا للإهانة.

الكون كله يتضرر من الكافر، فبسبب الكفر فسد الكون كله: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم: 41]، لأن الإنسان عندما يكفر سيرتكب المعاصي، وكل معصية ترتكب تكون تشويها للكون وتشويها للبيئة.

الكفر إفساد في كل شيء وتشويه لكل الحقائق وطمس لها، ولذلك المؤمن «يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار».

